مبادئ التعامل مع المشركين في السيرة النبوية

م.د.خمائل شاكر الجماليّ
مركز إحياء التراث العلمي العربي-جامعة بغداد
Dr.khamael_sh@yahoo.com

الملخص

إن النبـوة بصـفة عامـة ، والشخصـية المحمديـة بصفة خاصة ، لا يمكن أن تبدو مجافية عن الحياة ، أو متخلفة عنها ، لأنها جاءت في الأساس لإصلاحها ، ولا يمكن أن تنجح في تحقيق هذا الإصلاح ، وقد تربت بعيداً عنها ، ولم تعركها ظروفها على تباينها وتنوعها ، لكن هذه الظروف من ألفها إلى يائها وسكونها وحركاتها تقوم على صنعة إلهية حكيمة وتخطيط إلهي محكم يتناسب مع أداء هذه الشخصية في الحياة حتى تؤدي دورها في نقل البشرية نفلة جديدة حقيقية .

Principles of dealing with the polytheists in the biography of the Prophet

M. Dr. Khamail Shaker Al - Jamali
Center for the Revival of Arab Scientific Heritage – University of Baghdad

Abstract

Prophecy in general, and Muhammadism in particular, can not seem to go away from life, or lag behind it, because it was originally for reform. It can not succeed in achieving this reform. It has grown away from it, and its conditions have not caused it to vary and diversify. These conditions, from its origin to its tranquility, its stillness and its movements, are based on a wise divine workmanship and a strict divine planning that suits the performance of this

personality in life, so that it will play its role in the transfer of humanity to a new, real waste.

مقدمة :

قال سبحانه وتعالى (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى باللهشهيدا ، محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا) ٢٨ - ٢٩ . سورة الفتح .

النبي محمد (صلى الله عليه وآلهوسلم) من خير الناس فرقة وقبيلة وبيتاً ونسباً وحسباً،

قال النبي الأكرم : " أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم فرقة ثم جعلهم فرقتينفجعلني في خيرهم فرقة ، ثم جعلهم قبائل فجعلني خيرهم فرقة ، ثم جعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهمبيتاً وخيرهم نسباً ،خلقه وصفاته وتكريمه وذكره في التوراة والإنجيل : -

قال الله سبحانه وتعالى (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) الأعراف ١٥٧

وقال الله سبحانه وتعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) الأنبياء ١٠٧ .

المبحث الأول : سيرة النبي محمد (صلى الله عليه واله وسلم)

تختلف الشخصيات المتميزة عن الشخصية المحمدية في طبيعة وجودها وتكوينها ونقلتها في الحياة ، فالشخصية المحمدية شخصية معجزة في تكوينها ، وما طرحته من أفكار وقيم ، ويبلغ من إعجاز هذه الأفكار أنها صالحة للتجدد والخصوبة ، مهما تبدل الزمن أو تغيرت الحياة ، ولا يعود ذلك إلى الطبيعة البشرية التي حافظت عليها هذه الشخصية في تكوينها وأحداثها ، وطبيعة التميز الإنساني الخالص الذي أفرزته الدعوة وجسدته الحضارة الإسلامية .

ولقد أدهش العالمَ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في تعامله مع أعدائه وهو متمكّن منهم، فلم يظهر في التاريخ أرحم منه مع أعدائه رغم ما كان يلاقيه منهم من الأذى؛ إلا أنه كان مثالاً للأخلاق الحسنه متمثلاً لشعار العفو عند المقدرة(١).

ونبينامحمد (صلى الله عليهواله وسلم) لم يكن بدعاً من الرسل فقد أصابهما أصاب قبله من أعداء الله في التكذيب والطعن فيه رسالته وفي شخصه قال تعالى

{فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ} ال عمران : ١٨٤

قال تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) آل عمران : ٣١. وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول) النساء : ٥٩ ، وقال تعالى : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) النساء : ٨٠

فاتباع الرسول وإطاعته تشمل اتباع سنته قطعاً ، مع اتباع ما جاء به من القرآن المنزل عليه من ربه ، واتباع سنته متوقف على حفظها بداهة ، والرد إلى الرسول رد إلى سنته ، وهو متوقف بالكامل على حفظها بداهة . وقال تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) الحشر : ٧ ، وقال تعالى : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) الأحزاب : ٣٦ . وقال تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك في ما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) النساء : ٦٥ ، وإنما يكون حكم الله تعالى بيننا من خلال كتابه الكريم وما أنزله فيه من أحكام ، وما يحكم به الكتاب فهو قضاء الله تعالى بيننا ،

وإلى هذا الأمر الواضح ، والأمر هكذا كله مع السنة النبوية ، وقد أمرنا أن نرد إليها نزاعاتنا وخلافاتنا ، فما حكمت به فهو قضاء رسول الله ، وإلى هذا الفهم يرجع إلى النبي محمد ، قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : " نضر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره ، فرب حامل فقه ليس بفقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه ، منه (٢)

وكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في بعض خطبه التي شحنها بالأحكام ، من أمر ونهي وبيان ، يكرر مراراً قوله : ألا فليبلغ الشاهد الغائب كما هو ظاهر في خطبته في حجة الوداع ، وفي خطبته (بغدير خم) . وغير هذا كثير في منزلة السنة ولزوم حفظها ، وهو بديهي أيضاً في شأن ثاني ، مصادر التشريع ، المصدر الذي كانت مهمته الأولى التبيين عن المصدر الأول - القرآن - وتفصيله ، وترجمة أحكامه وتعاليمه في الواقع المعاش ، الأمر الذي لا يمكن إيكاله إلى مصدر آخر غير النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وسنته ، فحفظ السنة شرط حفظ الدين كله إذن .

ثم عزز النبي (صلى الله عليه وآلهوسلم) ، ذلك بلزوم صيانتها من أي دخيل فيقول أو عمل ، فقال : " إن كذباً علي ليس ككذب على غيري ، من يكذب علي بني له

بيت في النار(٣). حصيلة واحدة : من قراءة لتلك المقدمات ، أي قراءة ، وبأي اتجاه ، سوف نتوقع حصيلة واحدة ، وهي أن تدوين السنة في عهد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان أمراً مألوفا ، زاوله بعض من قدر عليه من الصحابة ، وليس أمرا محتملاً وحسب . فهل لهذه الحصيلة ما يؤيدها من الواقع في ذلك العهد ، فتكون حقيقة ثابتة ، تستوي عندها قراءتنا لتلك المقدمات الصحيحة على قوائمها ؟ ! أم الواقع خلاف ذلك ؟ ! فتبقى تلك المقدمات الصحيحة نظريات عائمة ليس
لها قرار ! (٤)

أولاً : موقف قريش من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

١ - ما أن أعلن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) نبوته رسمياً ، واختياره لولي عهده ، حتى
وقفت قريش وقفة رجل واحد بقيادة البيت الأموي ، وأعلنت رفضها المطلق للنبوة والكتاب وولاية العهد ، وصرحت بأنها ستجند كل طاقاتها المادية والمعنوية لصد أهل مكة خاصة والعرب عامة عن اتباع محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) والدخول في دينه ، وانقسم المجتمع المكي إلى قسمين (٢٩) : (٥) .

الأول : وهو الأكثر عدداً ومدداً ظاهرياً ، ويتألف من ثلاثة وعشرين بطنا من بطون قريش ومن والاهم من الموالي والأحابيش .
الثاني : وهو الأقل عدداً ، ويتألف من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن بطنه الهاشمي وبطن بني المطلب بن عبد مناف ، ومن والى هذين البطنين من الموال والأحابيش ،
مضافا إليهم الذين اعتنقوا الدين الإسلامي .(٦)
٢ - شن القسم الأول حملة نفسية وإعلامية مركزة ومنظمة على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، والبطن الهاشمي ، وعلى الذين آمنوا بالدين الجديد ، من أجل عزلهم والتضييق
عليهم وحملهم على ترك هذا الدين ، وأشاعوا الدعايات الكاذبة من أجل تشويه صورة
النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في أذهان الناس ، وادعوا أنه - حاشاه - مجنون أو شاعر أو كاذب أو كاهن ، وأن القرآن الذي جاء به (إن هذا إلا أساطير الأولين) الأنفال : ٣١ .
أما النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد مضى يبلغ رسالة ربه بإصرار لا يعرف التراجع أو المساومة ، وقال لعمه الذي راجعته بطون قريش ورجته أن يتدخل

لدى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ؛ لكي يتوقف عن دعوته لقاء عروض مغرية : " يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته " (٧) .

٣ - كان موقف عمادة البطن الهاشمي - المتمثل آنذاك بأبي طالب - مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بموقف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فها هو ذا أبو طالب يقول باسم الهاشميين مخاطباً النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، (يا ابن أخي ، إذا أردت أن تدعوا إلى ربك فأعلمنا ، حتى نخرج معك بالسلاح) (٨). وقال له في موقف آخر ، (اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فو الله لا أسلمك لشيء أبدا)(٩).

وعندما أشيع يوماً أن محمداً قد قتل ، وضع أبو طالب خطة لقتل كل سادات قريش دفعة واحدة ، فلما حضر محمد والفتية الهاشميون على وشك تنفيذ خطة أبي طالب ، أعلن أبو طالب تفاصيل خطته ، وكشف الفتية الهاشميون عن سلاحهم (١٠) ، فأدركت مشيخة بطون قريش الجد الهاشمي ، وأن أي اعتداء على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) من قبل البطون هو بمثابة

إعلان حرب لن تضع أوزارها حتى يفنى الهاشميون والبطون معا .

قررت البطون استعمال كل الوسائل لعزل محمد عن الهاشميين ، فإن هم أصروا على عدم التخلي عنه ، فلا بد من عزل الهاشميين أنفسهم عن البطون ، وفرض محاصرتهم ومقاطعتهم (١١)، فإن لم تجد هذه الوسائل تعين على البطون أن تختار رجالاً منها يشتركون جميعاً في قتل محمد (صلى الله عليه وألـه وسلم) ، فيضيع دمه بين البطون ، ولا يقوى الهاشميون على المطالبة بدمه ، وإن لم تنجح محاولة القتل ، وجب ملاحقة محمد أينما حل ، ومحاربته حتى يتم القضاء التام عليه وعلى دعوته (١٢) .

ثانياً : مواجهة المشركين للنبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)

١ - أصبحت المواجهة بين النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والهاشميين من جهة وبين بقيه بطون قريش قدرا محتوماً ، اتخذت في المرحلة الأولى طابع الحرب الباردة ، والمواجهة النفسية والإعلامية ، ذلك أن البطون أدركت أن عملية قتل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ستكون باهظة التكاليف ، وقد لا تنتهي إلا بدمار الطرفين ، بل هذا ما صرح به أبو طالب حامي

النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ قال للبطون : (والله لو قتلتموه ، ما أبقيت منكم أحدا حتى نتفانى نحن وأنتم) (١٣) .

٢ - كان النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) هو القائد العام لجبهة الإيمان ، وقد استعان بصفوة من أتباعه ليكونوا أركانا لقيادته ، وهم :

أولا - ولي عهده والإمام من بعده علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، الذي عينه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بأمر من الله ولياً لعهده ، وأعلن ذلك مع إعلانه للنبوة ، وطلب من الهاشميين وبني المطلب - وهم العمود الفقري لجبهة الإيمان- أن يسمعوا لعلي ويطيعوه ، وكان من بين الحضور والده أبو طالب (١٤) .

واقتضت حكمة الله تعالى أن يكفل النبي علياً في صغره ، ليعيش في كنف (النبي صلى الله عليه وآله وسلم) واحداً من أفراد أسرته (١٥) ، وأن يبقى ملازماً للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يفارقه حتى ودع النبي هذه الدنيا الفانية ، وذلك لكي يضعه النبي على عينه ويعده لخلافته . أمره النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أن ينام في فراشه ليلة هجرته ليوهم المتآمرين على قتل النبي أن النائم هو النبي وليس علياً ، ويوفر بذلك الوقت الكافي للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم)؛ للابتعاد عن

المشركين وكلفه أن يؤدي الأمانات إلى أهلها بعده هجرته ، وأن يتولى عملية ترحيل عائلة الرسول من مكة إلى المدينة (١٦).

المبحث الثاني: التعامل مع المشركين في السيرة النبوية

إن النبوة بصفة عامة ، والشخصية المحمدية بصفة خاصة ، لا يمكن أن تبدو مجافية عن الحياة ، أو متخلفة عنها ، لأنها جاءت في الأساس لإصلاحها ، ولا يمكن أن تنجح في تحقيق هذا الإصلاح ، وقد تربت بعيداً عنها ، ولم تعركها ظروفها على تباينها وتنوعها ، لكن هذه الظروف من ألفها إلى يائها وسكونها وحركاتها تقوم على صنعة إلهية حكيمة وتخطيط إلهي محكم يتناسب مع أداء هذه الشخصية في الحياة حتى تؤدي دورها في نقل البشرية نفلة جديدة حقيقية (١٧).

أولاً : أذى المشركين للنبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)

لقى النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) من قومه من الأذى فجعلت قريش - حين منعه الله منها ، وقام عمه وقومه من بنى هاشم وبنى المطلب دونه، وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من البطش به - يهمزونه ويستهزئون به ويخاصمونه، وجعل القرآن ينزل في

قريش بأحداثهم ، و فيمن نصب لعداوته منهم ، فمنهم من سمى لنا ، ومنهم من نزل فيه القرآن في عامة من ذكر الله من الكفار ، فكان ممن سمى لنا من قريش ممن نزل فيه القرآن : عمه أبو لهب بن عبد المطلب ، وامرأته أم جميل بنت حرب بن أمية ، حمالة الحطب ، وإنما سماها الله تعالى حمالة الحطب، لأنها كانت - فيما بلغني - تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حيث يمر ، فأنزل الله تعالى فيهما : { تبت يدا أبى لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب * سيصلى نارا ذات لهب * وامرأته حمالة الحطب * في جيدها حبل من مسد } المسد: ١- ٥

وكانت قريش إنما تسمى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مذماً ، ثم يسبونه ، فكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : ألا تعجبون لما يصرف الله عنى من أذى قريش ، يسبون ويهجون مذمما ، وأنا محمد . وأمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح ، كان إذا رأى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) همزه ولمزه ، فأنزل الله تعالى فيه(١٨)﴿ويل لكل همزة لمزة * الذي جمع مالا وعدده * يحسب أن ماله أخلده * كلا لينبذن في الحطمة * وما أدراك ما الحطمة

* نار الله الموقدة * التي تطلع على الأفئدة * إنها عليهم مؤصدة * في عمد ممددة} الهمزة ١- ٩ .

اعترض رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وهو يطوف بالكعبة - فيما بلغني - الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى ، والوليد بن المغيرة ، وأمية بن خلف ، والعاص بن وائل السهمي ، وكانوا ذوي أسنان في قومهم ، فقالوا : يا محمد ، هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، فنشترك نحن وأنت في الامر ، فإن كان الذي تعبد خيرا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيرا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه(١٩) ، فأنزل الله تعالى فيهم : { قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين } الكافرين ١- ٧ . أي إن كنتم لا تعبدون الله إلا أن أعبد ما تعبدون فلا حاجة لي بذلك منكم ، لكم دينكم جميعا ، ولي ديني . وأبو جهل بن هشام ، لما ذكر الله عز وجل شجرة الزقوم تخويفا بها لهم ، قال : يا معشر قريش، هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد ؟ قالوا : لا ، قال : عجوة يثرب بالزبد ، والله لئن استمكنا منها لنتزقمنها تزقما ، فأنزل الله تعالى فيه : { إن شجرة

الزقوم طعام الأثيم * كالمهل يغلى في البطون كغلي الحميم } الدخان ٤٣- ٤٦ ا، أي ليس كما يقول .

فلم تكن تلبية القوم إلا مثل تلبية أبي لهب . فقد أعرضوا عنه ، وأستهزأوا به ، وسخروا بدعوته ، أما هو فقد ظل يواصل دعوته بشتى الأساليب ، حتى اشتهر خبرها في مكة وما حولها . وبلغت دعوته بعض النفوس النيرة الخيرة التي كانت تريد الحق والخير ، فآمنت بها واتبعتها . بيد أن أكثرية التابعين لها كانوا من الطبقة الفقيرة التي لم تكن تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً .

أما سادة قريش وأشرافها .. كانوا المستغلون المرابون .. أما الذين كانت مصالحهم ترتبط بالأصنام والأزلام .. أما ذوو العقول المتحجرة ، والنفوس المتصلبة .. أما هؤلاء فقد اعتبروا هذه الدعوة شراً يجب أن يقاوم وأن يحارب بكل وسيلة .

ولذلك فهؤلاء لم يمتنعوا عن قبول الدعوة فقط ، بل أخذوا يسلكون معها مسلكاً معادياً ، وساروا في جبهة معاكسة تماماً . فكل من أسلم قابلوه بالكبت والاضطهاد ، وحاولوا ردَه إلى دينهم الخرافي ، فقد تعرض النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) للتعذيب والتنكيل من جانب قريش ؟ وكم من عبد أو أمة آمن بالرسالة فَهُدِرَ دَمُه ومات فداء إيمانه ! فهذا عمار قد عذبوه

ونكلوا به ، وهذا ياسر أبوه ، وسميه أمه قد قتلوهما قتلاً (٢٠).

ولم يكن نصيب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من هذا التعذيب والأذى قليلاً ، ويقابل كل ذلك بصبر حكيم ، وحلم قائد ، وأناة نبيّ .. فإذا جاءت إليه طائفة من الكفار استقبلهم بكل طلاقة ، ودعاهم إلى الدين بأحسن طريق ، فإذا لبّوا دعوته يكون ذلك خير ، وإلا فأنه كان يطلب منهم أن يأتوا بمثل ما أتى به من القرآن(٢١) . ثم يتلوا عليهم : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) الاسراء : ٨٨

ولطالما كانوا يسخرون منه ويستهزئون بدعوته ، فكان يعظهم ويدعو الله لهم بالهداية دون أن يغضب أو يثور . وكان في بعض الأحيان يتجول في القبائل والعشائر ، ويدعو الناس إلى ربهم . بيد أن كفار قريش كانوا يعرقلون طريق دعوته بأمرين :

الأول : أنهم كانوا يحذرون الناس من أن يتأثروا بدعوته قائلين لهم : إن الرجل منّا، وهو ساحر ومجنون أو كذاب ، حتى أن الناس كانوا يضعون القطن في آذانهم لكي لا يسمعوا قول علة النبي (صلة الله عليه وآله وسلم)

الثاني : أنه كان يسير خلفه رجل منهم ويصيح أنه كذاب فلا يسمع قوله ، ولا تلبى دعوته .

وعرف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أخيراً أن أهل مكة لا يمكن أن يكونوا الحاملين للرسالة الإسلامية المقدسة إلى الافاق ، لأن دعوته الملحّة المستمرة التي ظلت فيها عشرات السنوات لم تجد نفعاً أبداً ، ولم تُ نتج غير أصرار المشركين على الكفر(٢٢).

فصمم على نشر الدعوة بين سائر القبائل العربية الأخرى ، فإذا استطاع أن يهدي قبيلة واحدة ذهب إليها وظل ينشر نور الإسلام من خلال أفرادها .

فأخذ يدعو الناس في المواسم التي كانت العرب تتدفق فيها على مكة لغرض العبادة أو التجارة فيذهب إلى القبيلة ويقول لها : يا بني فلان : ((إني رسول الله إليكم ، وأنا آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وإن تؤمنوا بي وتصدقوني وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به))(٢٣) .

وكانت قريش ترسل وراءه من يعقب كلامه بتحذير العرب من طاعته ، وتهجن دعواه ، وكان عمّه أبو لهب يتولى هذه المهمة في اغلب الأحوال . أما القبائل العربية فكانت تتعصب لآلهتها المزعومة ، وتؤثر البقاء على

تقليد الآباء . كما كانت تحذّر من قريش إذ لو كانت تُسلم لكانت تتعرض لحرب قريش قطعاً . فكانت تردّ النبي ولا تقبل دعواه وتردُّه إما ردّاً جميلاً أو قبيحاً (٢٤).

ثانياً : مبادى تعامل النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) مع المشركين

١- لقد أدار النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) صراعه مع المشركين بحكمة بالغة فبدأ بالابلاغ خصوص قبيلته حتى يثبت من وقوفهم معه ، ولم يشذ عنه في ذلك سوى أبو لهب بل كان نداً وخصماً عنيدا ، فقد دعا على النبي بالهلاك، حتى لا يخذلهم الناس بهذا الأمر الجديد ، ولم يرد الرسول عليه قولا بقول ، حتى لا يتطور الموقف بما لا يحمد عقباه ، وإنما أمتص غضبه حتى لا يفرق أهله عليه ، ولما تثبت النبي من وقوف أهله معه ، صعد فوق جبل الصفا ، وأبلغ سائر القبائل بدعوته فنهروه وزجروه ولم يرد على أحد منهم ، ولكن القرآن كان يرد على أبى لهب وعلى المشركين قولاً بقول وحجة بحجة(٢٥) .

وهنا تبدو سياسة تعامل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في إدارة المواقف واضحة ، إنها لا تقوم على القوة البدنية أو الطنطنة الكلامية ، وإنما تقوم على

امتصاص غضب الآخرين بكل ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

٢- ظل النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) محافظاً على النظام القبلي ، وتقاليده وأعرافه في حماية أصحابه طول بقائه في مكة ، فلم يأمر فيها بحمل سلاح ، ولم يأمر فيها بإعلان الحرب أو القتال على المشركين ، ولم يحمل المسلمون سلاحاً ، ولم يؤذنوا بالحرب إلا بعد أن صارت ، لهم دولة ذات سيادة في المدينة ، وقبل ذلك ظل النظام السائد في الحماية جزءاً لا يتجزأ من أسلوب المسلمين وتفكيرهم وروح دينهم .

٣- اتخذت قريش سياسة المنع وسيلة لإجهاض الدين الجديد ، ولم يقابل المسلمون هذا المنع بالعنف أو القوة أو أسلوب فرض الإرادة ، وهنا يتكشف طبيعة الفكر الذي كان يلقنه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى أصحابه في خلال السنوات السرية الثلاث ، فلو كان هذا الفكر ، يقوم على بغض القوم والحقد عليهم وعداوتهم ، لظهرت آثار هذه السموم لا محالة ، حينما منعت قريش الدين الجديد ، أن يتنفس في ربوع مكة ، فلم نجد ما يدل على هذه الأفكار في سلوك المسلمين (٢٦).

٤- لم يتجاهل النبي محمد (صلى الله عليه واله وسلم) القبائل الأخرى في دعوته ، فنادى عليهم وسألهم عن

صدقه وأمانته ، فأقر الجميع بذلك على السواء ، فلما أخبرهم أنه رسول من عند الله إليهم ، اختلفوا في شأنه ، وكانت هذه الدعوة بمثابة الإعلان الرسمي عن قيامها ، بعدما أخذت حقها في الاعداد والتكوين والإنشاء ، ومن هنا تتبلور الشخصية السياسية للنبي محمد (صلى الله عليه واله وسلم) ، ويبدو مدى براعتها في اختيار التوقيت المناسب لإظهار الدعوة ، والتوقيت المناسب لإخفائها وأسلوب الترتيب لهذا الإظهار .

٥- كان للنبي محمد (صلى الله عليه واله وسلم) الموقف المؤثر في تنقية روابط التعصب للدين وحده ؛ فقد كانت الأخوة والدماء تحميه جنباً إلى جنب ، وكانت سبباً رئيساً في صمود النبي (صلى الله عليه واله وسلم) أمام المشركين(٢٧) .

خاتمة :

هكذا بعث النبي (ﷺ) ، والذي تجتمع فيه جميع المؤهلات الرسالة ؛ وكل ما ذكر في الكتب من علائمها . فهو من أعرق العرب فخراً ومجداً ، ومن أسمى أُسر العرب شرفاً وكرماً .. وهو أحسن الناس خُلقاً ، وأفضلهم عملاً ، وأقربهم إلى الحق وأبعدهم عن الباطل .

فهو البشير النذير الذي يحمل على كتفه مسؤولية قيادة الإنسان إلى كل خير، وصيانته من كل شر ، وابتدأت بالبعثة مرحلة جديدة للجزيرة العربية ، بل للعالم كله . لأنه كان أزهد الناس ، وأبسطهم في العيش ، وكان أشد الناس رحمةً ، وأسمحهم وأسهلهم في المعاملة . وكان يجيب دعوة الحر والعبد ، ويقبل الهداية ولو أنها جرعة لبن ، ويكافئ عليها أحسن مكافأة ، وكان لا يستكبر .

وكان يغضب لله ولا يغضب لنفسه ؛ ويُجري حكم الله وإن تضرر هو أو أحد من أصحابه به . فقد كان ا ينتصر على أعدائه المشركين بحسن المعاملة ، فهو قدوة لكل خير وأسوة في كل فضل ورائداً إلى كل ما ينفع الإنسان في العالمين .

هوامش البحث

(١)السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن . الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، دار الكتب العلمية ، القاهرة ، ٢٠٠٤ ، ص ٢٥٤ .

(٢)ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل (ت ٧٧٤هـ).السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، مطبعة عيسى البابي، القاهرة، د.ت ، ص ١٩٦.

(٣)الموسوعة الإسلامية الاستشراقية، ترجمة محمد سمير سرحان، مجلد ٧٠، ١٩٩٨م ، ص١٢٣.

(٤)الموسوعة الإسلامية الاستشراقية ، المصدر السابق ، ص ١٢٣ .

(٥)عمارة ، محمد . الاستشراق والظاهرة الإسلامية، مجلة المنهل، العدد ٢٧، السعودية، ١٩٩٩م، ص ٨٩.

(٦) ابن حنبل، أحمد (ت ٢٤١هـ). مسند الإمام أحمد، نشر الكتاب الإسلامي، دار صادر، بيروت، ١٩٦٩م ، ص ١٤٢.
(٧)البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين علي (ت ٤٥٨هـ). دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق : سيد علي، دار النصر، القاهرة، د.ت ، ص ٢٧٦ .
(٨)الترمذي، محمد بن عيسى (ت ٢٧٩هـ) . الجامع الصحيح، تحقيق : محمود شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت ، ص ٢٩٨.
(٩)الطبراني، أبو القاسم بن أحمد (ت ٣٦٠هـ). المعجم الكبير، مطبعة الوطن العربي، القاهرة، د.ت ، ص ٢٥٤ .
(١٠)البيهقي ، المصدر السابق ، ٦/ ص١٥٣ .
(١١) عمارة ، المصدر السابق ، ص ١٧٦ .
(١٢) البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة (ت ٢٥٦هـ). الجامع الصحيح، تحقيق : مصطفى الديب البغا، نشر دار ابن كثير، بيروت، ١٩٩٣م ، ص ٢٦٥.
(١٣) البخاري ، المصدر السابق ، ص ٢٧١،
(١٤) ابن حنبل ، المصدر السابق ، ص ١٨٧ .
(١٥) أحمد، أبو المجد. حقيقة كتاب صلة الإسلام باليهودية والمسيحية، دار البعث، قسنطينة، ١٩٨٦م ، ص ٢١١.
(١٦) اليوسفي، محمد هادي. موسوعة التاريخ الإسلامي، ط١، مطبعة باقري، قم،١٢٤٠ه ، ص١٤٤.
(١٧) ارنولد، توماس . الدعوة الى الاسلام، ترجمة: حسن ابراهيم حسن ، ط٣، مكتبة النهضة، مصر، ١٩٧٠، ص ١٤٤.
(١٨) ارنولد ، المصدر نفسه ، ص ١٤٤- ١٤٥ .
(١٩) الزهري ، محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب (ت ١٢٤هـ) . المغازي النبوية، تحقيق : سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ١٩٨١م ، ص ١٧٥.
(٢٠) ابن الزبير، عروة بن الزبير بن العوام (ت ١٩٤هـ) . مغازي رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، تحقيق : مصطفى الأعظمي، مكتب التربية العربي لدول الخليج العربي، الرياض، ١٩٨١م ، ص ١٩٣- ١٩٤.
(٢١) البخاري ، المصدر السابق ، ص ٢٢٣.

(٢٢) ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي (ت ٨٥٥هـ). فتح الباري بشرح صحيح البخاري، صححه وعلّق عليه : عبد العزيز عبدالله بن باز، أشرف على طبعه : محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٢م ، ص ٣١١.
(٢٣) شلبي، احمد . المجتمع الاسلامي ، ط٧، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٦ ، ص ١٦٥- ١٦٦ .
(٢٤) شلبي ، المصدر السابق ، ص ١٦٦ .
(٢٥) وجدي، محمد فريد . السيرة النبوية، ط١٣، الدار المصرية – اللبنانية، (القاهرة، ١٩٩٣م ، ص ١٢٢.
(٢٦) وجدي ، المصدر السابق ، ص ١٢٢ .
(٢٧) وجدي ، المصدر نفسه ، ص ١٢٢-١٢٣ .